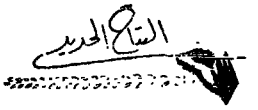

أهازيج الحزن

محمد نور الدين

خين يؤاتيك ، في العشية ، عبق الوزال أو تستريح على فرع ، في القبالة ، نجمة . حين يتشكل وجهك على هيئة التبغ أو يمتد بك التراب الى مهب لاحتمالات الجذور . حين يداهمك الخوف أو تتناوبك مواسم الهجرات ، فأنت في قلب عالم يتقاطع فيه الحزن والغضب الشفيف ، الحب والانكسار . عالم تؤطره الازاهير وتتخدده الطعنات .. عالم جودت فخر الدين .

جودت فخر الدين ، هذا الريفي الجميل الآتي بأوهامه وأهازيجه ، ماذا يخبىء لنا في سلته ؟ أية فاكهة وأي عطور ، وأي هم يتشرب ملامحه ؟

في مجموعته الاولى « أقصر عن حبك » * نقف أمام لوحة معجوقة بالظلال والتوهجات . نحاول تحديدا فلا ننجح ونستسلم لتداخل الاشياء : الريف ، المدينة ، الحزن ، الوطن ، الجنوب ، الذكريات . لكنه أول الخيط وباطن النبع يحدده لنا الشاعر :

« سوف تمنحني الذكريات الجميلة أوراقها
سوف يمنحني الموج ذاكرة
سوف تسأل عني القرى
حيث تعلم أني اغتراب الشذى وارتحال الينابيع »

هنا يختصر الشاعر كنهه . يأخذنا الى بداهية بسيطة وطفولة بريئة هي انعكاس لعالم الريف الجنوبي ، بشذاه وجداوله ، باغترابه وارتحاله . حيث يحتمي الزهر بين شقوق الصخور ويكون الدجى أول الاصدقاء وحيث تنفتح الارض مثل الذراعين ، وعلى صدر هذا العالم يرتمي شاعرنا ويتلمس الامان والسكينة :

« هنا يتلمس جرحي ترابا أليفا
وينتصب اللوز فاتحة للفضاء
وتبكي الشجيرات عند الصباح
وحين تلمّ الغصون بأهدابها قطرات المطر
أغالب موتا سحيقا
وأنشج سهوا فتورق خاطرة للحجر » .

انه الاستسلام الكلي لعالم القرية . بعيدا عنها أو محاذيا . قبالته أو في خاطره . وهو المتوقد بأشيائها ولا يعرفه سواها :

« أنا ذلك المسكون بالاشياء
بالتعب اللذيذ وبالصدى
لا شيء يعرفني سوى الصبار والطيون » .

حتى أجمل الموت هو الموت عند مداخل القرى :

« أيها المقاتل الجميل هل ترى ؟
ما أجمل الموت على مداخل القرى ؟ »

* الصادرة عن « دار الاداب » ــ بيروت ١٩٧٩ .

على صخرة ، عند كتف جبل وبين اللوز والاقحوان تتوزع مساحة الذكريات والتفاصيل القديمة والصغيرة. لقد استغرقت الطبيعة الشاعر بشكل يذكرنا بالرومنطيقيين الاوائل الذين هوموا وحوموا فلم يتركوا شجرة الا وتفيأوا ظلها ولا جدولا الا واغتسلت فيه قرائحهم ولا نجمة الا وأجلسوها بينهم . وهذه « الذاتية » الجديدة ، رغم غرابتها في وقتنا المعاصر الذي لا يترك للانسان متسعا للراحة والتأمل والاستغراق ، نجد جذورها القاسية في كل زاوية وحارة وسهرة وملتقى في جنوبنا اللبناني . ولا يدعنا الشاعر نوغل في المتاهات أو نبدأ بالظنون فيعلن بنفسه:

« لا تبدأوا بالظنون
فاني سليل الخرائب والامسيات الحزينه » .

هنا يتقدم الحزن القافلة ويتتوج عند شاعرنا . من النادر في قصائد المجموعة ألا نعثر على ما يعبر عن الحزن أو ما يوحي اليه . فالحزن تارة طائر أو طاحونة وطورا سروة له أرصفة ولونه أبيض . للدمع آية وللبكاء آيات ، ولا شيء يزهر في القلب سوى الجراح ، وحتى حين يهوى فالذي يقربه من حبيبته فاصلة من الاسى :

« تقربني منك فاصلة للاسى
ويباعدني عنك مستنقع الذكريات
ونحن فطرنا على الحزن
مذ كان يختلج الدمع كالزهرة الوالهة » .

فهذا الحزن ليس طارئا ولا مرحليا . انه منذ النبض الاول ومنذ الخطوة الاولى ، ومذ تفتحت عيناه وجوارحه . في الجنوب يكتسب الحزن نكهته المميزة. للحزن عندنا فولكلوره ومواسمه : في المواويل الشعبية والحلقات الدينية ، في الواقع المادي الماضوي والحاضر. للحزن عندنا تاريخ . ولكن هل تاريخنا تاريخ للحزن ؟ وهل الحزن عند جودت فخر الدين حالة ملازمة ، أم هو نتيجة للتهويم ؟ وأي شعاع مسنون يوغر صدر شاعرنا ؟

« أقف الآن كصارية آلمها العصف وأحلم بالريح
سأفتح نافذتي نحو الطرف الآخر للموت
وأرقب بعض فراشات تتهالك في الضوء
تعبت من التهويم وأعيتني كلماتي
لن أخلد للنوم لان شعاعا مسنونا يوغر صدري » .

هنا صورة كاملة من اليأس ، محتشدة بالالم والموت والهلاك والاعياء والارق والطعون . وانى لشاعرنا التفلت من دائرة الحزن هذه حين يرى كل شيء حوله حجارة ؟ وأي سهل سيتسع لحزنه ؟

« أتوزع ما بين الاحجار
لغتي حجر
مجلس اصحابي حجر
والمقهى والناس ورائحة الغيد
واون الخمرة .. أحجار
لا سهل سيتسع الآن لزنبقة الحزن »

ولكن أين لشاعرنا الفرح ؟ ينكفىء ويبحث فلا يلقاه الا على صدر أمه :

« لا وقت لي للبكاء
ولست لأفرح الا على صدر أمي » .

وحين ندخل في الوطن ، فانما من بوابته المزدانة بالثقوب ، وما أكثرها . والدخول ـ كما الوطن ـ صعب . لذا فشاعرنا شديد التشرد ينشد متسعا للكآبة والسؤال . أحلامه مؤجلة وكل شيء يستغرقه النوم ولحظة الميلاد لم تحن بعد :

« يبدأ الوقت من حفرة في المكان
ويبدأ الوطن الصعب من حفرة في الزمان
ونحن نؤجل أحلامنا دائما
ويؤجلنا موتنا دائما فهو لا يتقدم الا بطيئا
وفي الوطن العربي تضاريس لا تعرف الدهر الا طليقا
ويذكرها الدهر ماجنة
تسقط الآن في نومها ، يتأخر زلزالها
وبجانبها يرقد الوقت مسترخيا » .

وفي واحدة من أجمل قصائده يعبر الشاعر بأداة بسيطة وواضحة عن مأساة الانسان الجنوبي الذي يرفضه الآخرون ويرون فيه الخراب في حين يسقط هو ويبذل دمه ويترك أرضه وأحلامه من أجل كرامة الآخرين وحريتهم :

« نواصل هجرتنا كل يوم
وتنتشر الارض حيث نحط
الجهات عدائية والدروب عدائية
غير اننا نعاكس كل الجهات وكل الدروب
واذ نتشرد نحو المدينة تنأى بناياتها

تتساءل في سرها :
« من يحاصرني في السكون
من القادمون الى جهة البحر مثل الخراب ؟ »
وينهال منها رصاص غزير » .

تعرف المدينة (ورموزها) ماذا يمثل هذا « المرفوض » ، هذا الذي ينهال عليه الرصاص من كل الجهات . فالوقت جنوبي والرماد جنوبي والمدينة تخشى هذا الطالع من الارض الطيبة التي لا تعرف الخداع ولا المصالحة ، المجبولة على الوفاء والبذل ،

الارض التي لا يحدّها الا الفضاء . ترفض المدينة انسان هذه الارض لانها تخشى « عاداتنا القروية » كما تخشى عالم النقاء والصمت والجمال والموت . ولكن الموت الجنوبي ليس موتا عاديا . بل هو علامة المرحلة وشاهد اللحظة المستمرة فيعلن الشاعر محذرا :

« والقبائل حين أتت لترى موتنا
أدركت انه كان موتا مخيفا
...
فاحذروا موتنا في الجنوب
فاحذروا موتنا في الجنوب » .

وهو يؤمن بأن الوطن الحقيقي قادم . يرفع رايته الفقراء . متخطين زمن القبائل الكاذب :

« وفي الوطن العربي قبائل لا تاريخ لها .
هذا زمن نحن نؤرخه
نصنعه نحن الفقراء ونكتبه » .

وهو اذ يقتصر على « التمني » الا انه يعبّر عن التزامه الصريح بقضية الانسان المعذب والفقراء الذين أدمنتهم الشوارع فيقول في مقطع ـ لحظة :

« رأيت فقيرا
توسط مستبشرا باحة الموت
يرقص مغتسلا بالرصاص
ومبتهجا
ينتشي طلقة طلقة
فتمنيت لو ان لي بعض هذا الغنى » .

وفي شعر جودت فخر الدين تلويحة خجلى لامراة بعيدة . هي الضباب وقطر الندى أو هي البحر . يبادلها . مرتبكا وصامتا ، الهوى ويعدها بالنجوم والضوء والقمر ويدعوها للهروب معا بعيدا عن الاعين . فنحسّ ببراءة التجربة ، فيطارح ، بديلا ، هموم أسئلته :

« كيف لي أن ألملم شعثي ؟
وأعلن في حمأة الشوق ناري ؟
لماذا يفارقني الارتعاش وتهجرني شهوتي ؟
أين يمكنني الآن أن أحتمي من هموم السؤال ؟ » .

الرحلة مع جودت فخر الدين لا تنتهي . ولا بد ـ بالطبع ـ من وقفة .

غنائيته ساطعة ولغته شفافة . كلماته بسيطة ، تنساب بهدوء وسلاسة فلا تشعر « بالعبء الكبير » الذي تواجهه مع أكثر الشعر الحديث حين تفتش وبصعوبة عن مدخل أو مفتاح لقصيدة .

اللحظة عنده متسعة الى حد الانفلات . الا انه يعقل هذا الجموح باستعمال ذكي للجملة الشعرية الواحدة أكثر من مرة في القصيدة الواحدة فيجذبك الى الفكرة الاساسية من جديد وأنت على حافة الخروج منها .

عنده تتشابك الحالة ـ القضية بالحالة ـ الذات . فتسجل قصيدته « كلا » متعدد العناصر والتراكيب ومشحونا بالحرارة والعاطفة . وهو اذ يسجل أو يعبّر أو يصوغ ، لغة . تلك الحالات فانه يحاول تخطي التسجيل وكونه « شاهدا » فقط . يحاول حضورا « فهذا زمن الحضور » ويحاول ممارسة وينحاز . يحاول « فعلا » ويفتح للاحتمالات بابا .

في مجموعة « أقصّر عن حبك » أمسك الشاعر بطرف الخيط واستشرف الحالة الاجدى . وخيط الشعر طويل والحالات أكثر من أن تحدد أو تمسك .

بيروت

دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

روجيه غارودي

★

- **ماركسية القرن العشرين**
  ترجمة نزيه الحكيم
- **منعطف الاشتراكية الكبير**
  ترجمة ذوقان قرقوط
- **البديل**
  ترجمة جورج طرابيشي
- **مشروع الامل**